مجمع اللغة العربية بدمشق

المؤتمر السنوي الثامن
نحو رؤيةٍ معاصرةٍ للتراث

أثر التراث العربي في النهضة الأوربية

الأستاذ شحادة الخوري

دمشق

٢٢-٢٦ ذي القعدة ١٤٣٠هـ

٩-١٣ تشرين الثاني ٢٠٠٩م

أثر التراث العربي
في النهضة الأوربية

أ. شحادة الخوري
عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

المؤتمر الثامن لمجمع اللغة العربية بدمشق
المنعقد من ٩-١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٩
- دمشق -

أثر التراث العربي
في النهضة الأوربية

تمهيد:

إن الإنسان، بفطرته وطبعه، توّاق إلى ارتياد المجهول واكتناه أسرار نفسه وخفايا الكون وكشف ما استتر وراء حجاب وإدراك ما يقع تحت الحِسّ وما يقع خارج الحِسّ، ويظل العقل يلحُّ في طلب المعرفة دون توقف.

والمعرفة بدورها، هي اللبنة الأولى والأقوى في بناء الحضارة الإنسانية بناءً مادياً وفكرياً وروحياً، ثقافةً ومدنية.

والحق أن الحضارة لم تنشأ مصادفة، بل هي ثمرة جهد ودأب متواصلين وحصيلة كشوف واستنباطات وإبداعات متلاحقة، كما أنها ليست صنع فرد أو أفراد، وإن كان لبعض الأفراد من ذوي القدرات والمواهب فضل الريادة والأسبقية، بل هي صناعة البشر جميعاً على اختلاف أجناسهم ومواطنهم.

إن الحضارة الإنسانية هي مجموعة الحضارات القومية، وتنوعها يعود إلى اختلاف الزمان والمكان. وهذا التنوع لم يَحُلْ دون اقتباس أمة عناصر تحضّرها من أمة أخرى أو أكثر، ولئن كان للسابق فضل الإنشاء والبناء فللاحق فضل الاقتداء والإغناء.

وفي اعتقادي أنه ليس من أمة أُتيح لها أن تنهض بدور يضاهي دور أمتنا العربية. لقد كان للصحراء والبادية، وللتنقل والترحال، أثر في إذكاء العقل وإلهاب العاطفة وإطلاق الخيال عند العرب، فكانت جاهليتهم متوهجة بالمشاعر الفياضة والحكم والأمثال والتصوير والتمثيل وقد تجلى ذلك في تراث خصب من شعر ونثر وحكايات عن شجاعة وكرم وشهامة.

ولما جاء الإسلام الحنيف حقق للعرب انتقالاً سريعاً من الفرقة إلى الوحدة، ومن الضعف إلى القوة، ومن الجهل إلى العلم. لقد أحدث كلمة «اقرأ» تأثيراً عميقاً فيهم، حولتهم من أمة مشافهة ورواية إلى أمة قراءة وكتابة، وعملت الآيات الكريمة على تغيير الاتجاه: «قلْ ربِّ زدني علماً» و«هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» وأقوال النبي الكريم: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» و«اطلبوا العلم ولو في الصين».

صارت المعرفة مطلبهم والعلم غايتهم واللسان العربي المبين أداة الإفصاح والإيضاح فتركوا للأجيال اللاحقة من قومهم والأقوام الأخرى تراثاً تنهل منه وتتابع المسيرة، والأيام دول بين الناس.

تذكر الخطة الشاملة للثقافة العربية التي وضعتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام ١٩٨٦ أن التراث الثقافي يشمل المخطوطات والوثائق والآثار والمتاحف والمكتبات والتراث الشعبي وطراز العمارة، ولكن الحديث عن ذلك كله يقتضي الوقت الطويل، ولذا سأكتفي بالحديث عن وجه واحد من وجوه الثقافة ألا وهو الوجه العلمي لما كان له من أثر في الغرب بشكل عام والنهضة الأوربية بشكل خاص.

نقل العلوم إلى العربية:

بعد البعثة النبوية، وقيام الدولة العربية الإسلامية وامتداد الفتوح غرباً وشرقاً أقبل العرب على نقل معارف الأمم التي سبقتهم إلى اللغة العربية. فبدأت ترجمة ما وصل إليه السابقون في العلوم، في أيام الأمويين ثم توبعت بنشاط أكبر أيام الدولة العباسية. أنشأ المنصور ديواناً للترجمة وأحدث الرشيد بيت الحكمة وجاء المأمون فبذل جهده لتنشيط الترجمة وقدم لها الرعاية والدعم.

ترجم العرب عن الهندية والفارسية والسريانية والنبطية، ولكن القسم الأكبر من الترجمات كانت عن لغة الإغريق اليونانية، وقد بلغ ما تُرجم من هذه اللغة أربعمئة كتاب في الفلسفة والفلك والرياضيات والطب. وأهم من ترجمت كتبهم أرسطو المعلم الأول وأفلاطون وبطليموس وإقليدس وأبو قراط وجالينوس.. الخ وكان من ألمع مترجميهم حنين بن إسحق وابنه إسحق وصهره حبيش الدمشقي وآل بختيشوع وآل ماسويه والكندي وابن المقفع وثابت بن قرة...

وماذا كان حصاد ذلك؟ لقد حفظ العرب علوم من سبقهم وصححوا ما احتاج إلى تصحيح ثم أضافوا إلى معارف السابقين إضافات مهمة أحلتهم منزلة رفيعة في تاريخ العلم والحضارة.

قال جورج مارتون في كتابه «تاريخ العلم» «إنه لعمل عظيم أن ينقل العرب إلينا علوم اليونان وفلسفتهم وأن يزيدوا عليها حتى أوصلوها إلى درجة مرموقة من النمو والارتقاء». وقال أوسلر: «لئن أشعل العرب سراجهم من القناديل اليونانية، فإنهم ما لبثوا أن أصبحوا جميعاً شعلة وهاجة استضاء بنورها أهل الأرض». وشهد سيديو بتأثيرهم اللاحق في الغرب إذ قال: «إن العرب كانوا أساتذة أوربا كلها في كل فروع المعرفة».

أما ما قيل عن المعجزة اليونانية فهو هراء إذ سبق للإغريق أن اطّلعوا، قبل أن ينهضوا فلسفة وعلماً، على ما وصل إليه سابقوهم من أهل مصر وبلاد الشام والرافدين، فأخذوا ثم أضافوا شأن سواهم وهذا لا يقلل البتة من فضلهم وعطائهم الكبير.

الإضافات العربية:

كان من تراث حركة النقل أن دفعت إلى الدراسة والبحث والكشف، وما أضافه العلماء العرب على اختلاف مللهم، في ظل الدولة العربية الإسلامية، وباللغة العربية التي أتقنوها كثير حتى ليضيق

الوقت عن تعداده. بَيْدَ أن كتاباً عن العلوم الإسلامية صدر عن مؤسسة التقدم العلمي بالكويت ذكر للعرب اثني عشر كشفاً علمياً كان لكل منها شأن كبير في تقدم العلم وهي بإيجاز:

١- علم الجبر - الخوارزمي (و ٧٨٠م).

٢- خيوط الجراحة من إمعاء الحيوان - الرازي (و ٨٥٠م).

٣- الكاميرا (آلة التصوير) - ابن الهيثم (و ٩٦٥م).

٤- النظارة (العوينات) - ابن الهيثم (و ٩٦٥م).

٥- التخدير - ابن سينا (و ٩٨٠م).

٦- النوّاس - ابن يونس المصري (و ١٠٠٩م).

٧- المِخَضَّة الماصة - الجزري (و ١١٦٥م).

٨- الدورة الدموية الصغيرة - ابن النفيس (و ١٢١٠م).

٩ و١٠و١١- تطوير صناعة الورق والبارود والإبرة المغناطيسية.

١٢- اكتشاف قوانين الحركة الثلاثة[1].

وحسبنا أن نشير إلى دور العرب في ضبط صور الأرقام الهندية في شكليها الهندي والغباري أو الأصح الشرقي والمغربي وإيضاح دور الصفر وإدخالها الغرب.

لقد رأى جورج سارتون في مؤلفه «تاريخ العلوم» أن يقسم قصته عن الإنجازات العلمية إلى عصور يمتد كل عصر نصف قرن وقرن بكل نصف قرن شخصية مركزية واحدة:

- يدعو المدة من ٤٠٠-٤٥٠ عصر أفلاطون يليها عصر أرسطو وإقليدس وأرخميدس.
- يدعو المدة من ٦٠٠-٧٠٠ ق.م القرن الصيني.
- يدعو المدة من ٧٥٠ ق.م -١١٠٠ أي مدة ٣٥٠ عاماً الفترة العربية وهي سلسلة متواصلة تضم جابر بن حيان، الخوارزمي، الرازي، المسعودي، أبو الوفاء، والبيروني، ابن سينا، ابن الهيثم، وعمر الخيام.

---

[1] قوانين الحركة الثلاثة هي:

١- تسارع جسم ما أثناء حركته يتناسب مع القوة التي تؤثر عليه.

٢- إن لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار ومضاد له في الاتجاه.

٣- إن الجسم يبقى في حالة سكون أو في حالة حركة منتظمة في خط مستقيم ما لم تجبره قوى خارجية على تغيير هذه الحالة.

أما الأسماء الأوربية فتظهر بعد (١١٠٠م): جيرارد الكريموني، روجر بيكون. وحتى أمجاد هذه الحقبة فتتقاسمها مع الأسماء الغربية أسماء عربية مثل ابن رشد والطوسي وابن النفيس. أما بعد ١٣٥٠م فيختفي الألق العربي إلا ومضات قليلة في ليل طويل.

النهضة الغربية:

ومع بدء الانحسار العربي أخذ الأوربيون بالتقدم العلمي بعد اطلاعهم على التراث العربي الذي بهرهم بروعته وعظمته، وهذا ما جعل الشاعر الإيطالي بيترارك (١٣٤٠-١٣٧٤) يقول محنقاً: «ماذا! إذا استطاع شيشرون أن يكون خطيباً بعد ديموستينوس، واستطاع فيرجيل أن يكون شاعراً بعد هوميروس، ثم بعد هؤلاء العرب لا يسمح لأحد بالكتابة؟! لقد جارينا اليونان وتجاوزناهم أحياناً، ثم تقولون: لا نستطيع بلوغ شأو العرب، يا للخبال! يا لعبقرية إيطاليا الغافية!».

لقد تعرضت البلدان العربية بدءاً من مطلع القرن الثاني عشر «بدء الحروب الصليبية (١٠٩٦-١٢٩١م) حتى سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م» إلى غزوات ضارية مدمرة من الغرب والشرق، فكيف لا يعتري النشاط الفكري الضمور فالجمود. لما دخل المغول بخارى الزاهرة الزاهية بأهلها وتعدادهم (٤٠٠) ألف تركوها أنقاضاً ولما دخلوا بغداد قتلوا من أهلها /٨٠٠/ ألف وخربوها وألقوا كتب العلم في نهر دجلة. أما الفرنجة فقد دمروا ما دمروا وأحرقوا ما أحرقوا ولم تسلم المكتبات من شرهم.

لقد نفذ العلم العربي بل الثقافة العربية كلها إلى أوربا من معابر مختلفة: إسبانيا وصقلية والحرب الصليبية، ونشير باقتضاب إلى كل منها.

المعبر الأول - إسبانيا:

كانت بداية النقل في إسبانيا في منتصف القرن العاشر، فجرت ترجمات في الطب والرياضيات والفلك وجمعت في دير سنتا ماريا في ريبول في كاتالونيا الإسبانية. وقد تعرف الراهب جربرت على بعض هذه الترجمات وعلى الأرقام الغبارية، وهو نفسه قد اعتلى السُدَّة الباباوية سنة (٩٩٩م) باسم سلفستروس الثاني.

المعبر الثاني - صقلية:

استولى العرب الأغالبة على صقلية عام (٨٣١م) وبقوا فيها حتى عام (٩٠١م) ثم تلاهم بنو الحسن الكلبي حتى عام (١٠٤٠م). ومن المترجمين الذين نقلوا علوم العرب فيها الراهب البندكتي قسطنطين الإفريقي وصارت سالرنو بؤرة علمية. وفي عهد النورمان في عام (١٠٩١م) كتب الإدريسي كتابه الجغرافي «نزهة المشتاق» وفي زمن فرديرك الثاني (١٢٩٦-١٣٣٧) ترجم تيودور وميخائيل سكوت كتب الطب.

المعبر الثالث ـ إسبانيا (ثانية):

استمر النقل من العربية في القرن الحادي عشر (١٠٠٠-١١٠٠م) ثم أخذ في الازدياد. يقول شارل هسكنز عن الترجمة في ذلك العصر: «لم يكن عمل المترجمين منحصراً في مكان خاص، بل إن النقل قد تم في برشلونة وطرزونة وليون وبمبلونا ثم وراء جبال البيرينة أي في الأرض الفرنسية في تولوز ومارسيليا ولكن المركز الرئيسي كان في النهاية في مدينة طليطلة».

وفي طليطلة شجع كبير الأساقفة ريموند (١١٣٠-١١٥٠م) عملية الترجمة وكلف يحيى الإشبيلي ودومنغو جنديسلفي نقل كتب الرياضيات والفلك والفلسفة والتنجيم إلى القشتالية فاللاتينية. ولكن رأس المترجمين كان جيرارد الكريموني الذي تلبس دور ابن إسحق في المشرق فترجم مع مساعديه أكثر من سبعين مؤلفاً عربياً وأجاد ومنها كتاب «التصريف» لأبي قاسم الزهراوي و«القانون» لابن سينا و«المنصوري» للرازي وغيرها.

وفي القرن الثالث عشر استمر النقل وظهر ميخائيل سكوت ومركوس وامتد إلى فرنسا في مقاطعتي لانقودوك وبروفنس.

وفي هذا النقل غرَّب المترجمين كلمات عربية كثيرة فحرفوا لفظها لتأتلف مع لغتهم. وإننا لنستطيع القول إن هذا كله قد غرس شجرة العلم في الأرض الأوربية فأثمرت الكثير.

المعبر الشرقي ـ الحروب الصليبية:

اهتم الصليبيون بالعلوم التي كانت منتشرة في الشرق ولاسيما بلاد الشام وترجموه بعد سكناهم بعض المدن الشامية، فتعلموا وضع الخرائط الجغرافية وعلم الفلك. ونقل اسطفان الأنطاكي البيزي الأصل كتاب المجوسي في الطب إلى اللاتينية. ولكن تأثرهم الأكبر كان بتقليد العرب في بناء المساكن ومفروشاتها وفي مأكولات العرب وطراز حياتهم الاجتماعي وفي آدابهم وفنونهم المختلفة.

ونثبت فيما يلي نبذة عن أهم النقلة من العربية إلى اللغات الأوربية:

١- قسطنطين الإفريقي (١٠١٥-١٠٨٧):

ولد في قرطاج وارتحل إلى البلدان الإسلامية بلاد الرافدين والهند ومصر ثم صار راهباً في دير كاسينو بإيطاليا عام ١٠٥٦م. نقل إلى اللاتينية فصول بقراط عن النقل العربي لحنين ابن إسحق وغيره ويؤخذ عليه أنه ترجم كتباً ونسب تأليفها لنفسه ومنها كتاب «الحميَّات» وكتاب «البول» من تأليف إسحق بن سليمان وكتاب «زاد المسافر» لأحمد بن الجزار القيرواني.

٢- أدلهر:

وهو راهب بندكتي من مدينة باث على نهر الأفون. درس في فرنسا في مدينتي تـور وليـون وبإسبانيا وإيطاليا ومصر وآسيا الصغرى. رجع إلى فرنسا في عهد هنري الأول وذاع صيته عـام ١١١٥م ولقب بالفيلسوف الإنكليزي. وفي حدود ١١٣٠ نقل أصول إقليدس من العربية إلى اللاتينية فصار مرجعاً للرياضيات ونقل كتاب الخوارزمي في الحساب ونقل كتـاب الأزيـاج الخوارزميـة ورسالة لثابت بن قرة...

٣- جيرارد الكريموني:

ولد عام ١١١٤م بمدينة كريمونا في لمبارديا الإيطالية، وفيها درس الفلسفة ثم رحل إلى طليطلة ودرس العربية، ونقل منها إلى اللاتينية نحو سبعين مصنفاً علمياً منها: كتـاب الـسماع لأرسـطو، ملخص لكتاب الخوارزمي، كتاب القانون لابن سينا، وترجمـة أبـي الوفـاء للمجـسطي، كتـاب المنصوري للرازي، المدخل إلى الطب للرازي، مقالة في الجدري والحصبة للرازي، زيج الزرقالي.

أوفده الإمبراطور فريدريك الأول من مدينة كريمونا إلـى طليطلـة للحـصول علـى كتـاب المجسطي.

٤- جاك ديبارنس:

ولد بمدينة تورني حوالي سنة ١٣٨٠ م وتوفي عام ١٤٥٨ م. درس في مونبيليه وباريس وكان الطبيب الأول لدى الملك شارل السابع. له كتاب عن الأدوية المركبة اقتبسه من كتب ماسويه ونشره عام ١٥٠٠م. وقضى إحدى وعشرين سنة في شرح ابن سينا، ولم ينشر هذا الشرح إلا سنة ١٤٩٨ في ليون ثم في البندقية وختم الترجمة بشعر لاتيني منه:

إني أخذت من القدماء

وحمدت العرب واليونان

وهم أطباء اعترف كل الناس بفضلهم..

وهناك عدد آخر من التراجمة الأكفياء الذين نقلوا أفضل ما بلغه اليونان ثم العرب مـن علـوم ومعارف إلى لغات الغرب ومنهم أسطفن الأنطاكي البيزي الأصل ومركـوس وميخائيـل سـكوتر وجيراردي صابيونتا وهرمن الألماني والفرد دي سويشال الإنكليزي وغيرهم.

بعد حركة النقل الناشطة للعلوم العربية إلى اللغات الأوربية، قام ملوك أوروبا (فريدريك الثاني إمبراطور ألمانيا (١١٩٤-١٢٥٠)م وألفونسو العاشر ملك قشتالة (١٢٥٦-١٢٨٤)م بتأسيس مراكز

ثقافية عهدوا فيها بالتدريس إلى أساتذة عرب يدرسون الطب والفلسفة والمعارف الإنسانية وبإحداث مدارس للغات الشرقية وإنشاء جمعيات دراسات وإصدار مجلات لهذا الغرض.

ويتساءل المرء: كيف نظر الغرب إلى الحضارة العربية وإلى ما تم نقله منها إلى الغرب؟

أثر التراث العربي في نهضة أوروبا:

لقد كان لنقل العلوم والمعارف العربية إلى لغات الغرب أثر كبير. لقد ذكرت المجلة التي تصدرها المنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة بباريس «بريد اليونسكو» عام ١٩٨٠ أن كتاب القانون لابن سينا بقي يُدرس في جامعة بروكسل ببلجيكا حتى عام ١٩٠٩. وقال أوسلر: «لقد عاش كتاب القانون مدة أطول من أي كتاب آخر كمرجع أوحد للطب». لقد بلغ عدد طبعاته سبع عشرة طبعة. وقال: «إن ابن سينا مكّن علماء الغرب من الشروع بالثورة العلمية التي بدأت فعلاً في القرن الثالث عشر وبلغت مرحلتها الأساسية في القرن السابع عشر».

أما ابن خلدون فتأثيره أوسع من أي يحاط به، وهو ما جعل المؤرخ أرنولد توينبي يقول في كتابه «دراسة التاريخ». لقد سبق تارد بمعالجته المحاكاة والتقليد. ودور كهايم بالقول بالتفسر الاجتماعي، وتميز عن فيكو بموضوعيته وشابه ماكيافيلي في دراسة السلطة وأساليب الحكم، وشابه نيتشه في نظرية الحق للقوة.

ولقد كان للفارابي تأثيره الكبير في الفكر الأوروبي. تأثر به الراهب الفيلسوف فنسان دي بوفيه عام ١٢٦٤ واقتبس أجزاء من فلسفة الفارابي، ونقلت كتبه إلى اللاتينية وطبعت جملة واحدة في باريس عام ١٦٣٨ م.

لقد قال جورج سارتون في كتابه «تاريخ العلم»: إن الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني قد اضطلع به المسلمون، وأن أبا نصر الفارابي أعظم الفلاسفة والمسعودي أعظم الجغرافيين والطبري أعظم المؤرخين.

أما في علم الفلك فقد كان تأثيرهم أعمق وأهم. لقد مَهّدوا الطريق لكبلر وكوبر نيكوس بما أوجدوه من آلات ومكتشفات وما قاموا به من تجارب، وأثرهم في ذلك ساطع في الأسماء الفلكية المنقولة بألفاظها إلى اللغات الأوربية.

وكيف يُغْفل الخوارزمي وهو الذي أدخل استعمال الصفر إلى أوروبا ورتب علم الجبر ووضع جداول حساب المثلثات.

إن الحديث عما اقتبسته أوروبا من العرب يطول ويطول، ولكن ثمة أمراً لا يصح إغفاله وهو أن الغرب لم يتأثر بالمعلومات العلمية العربية فحسب بل تأثر بالمنهج العلمي الذي ابتكره العرب، ومن أهم أركانه التي يعددها العلامة محمد السويسي كما يلي:

١- لا يكون الحق حقاً إلا ما أملت التجربة أنه حق.

٢- لا علم إلا بالعدد.

٣- لا علم بلا عمل والعلم جد ومثابرة.

٤- الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها أخذها.

٥- العقل هو **المرجع** وعليه الاعتماد.

٦- العلم يطلب لذاته لا لنيل جزاء أو شكر.

وكان القرن التاسع عشر قرن الاستشراق في كل أنحاء أوروبا، فقد كثر الدارسون وجهدوا في جمع المخطوطات ونشرها مطبوعة ودراستها ثم تأليف الكتب عن ذلك كله.

لقد أفاد الاستشراق وأضرَّ. ساعد على كشف الكثير من المخطوطات العربية والعلمية والتراثية ودراستها والتعليق عليها وإذاعة خبرها. ويتجلى شره في التمسك بالأفكار المسبقة والتحامل على العرب والمسلمين.

لقد اتخذ المستشرقون تجاه الحضارة العربية ثلاثة مواقف:

- **الموقف الأول:** وليد التعصب، ذهب إلى أن الحضارة العربية هي نقل للحضارتين الإغريقية والفارسية.
- **الموقف الثاني:** حاول أن يظهر أن الحضارة العربية ليست من صنع العرب بل من صنع الأقوام التي اعتنقت الإسلام.
- **الموقف الثالث:** موقف إيجابي منصف يعترف بدور العرب الكبير في الحضارة الغربية.

إلى الموقف الأول ينتمي المستشرق قوتيه الذي يصرح بالتفوق البيولوجي للجنس **العظيم** المستطيل الرأس، الأشقر أي لأهل أوربا الآريين على الإنسان السامي البدائي وقد جرى دون شك في شرايينه شيء من الدم الزنجي.

يقول إن عقليتي الشرقي والغربي تختلفان أساساً كاختلاف روما عن قرطاج في بنيتهما العقلية ويقول: العرب ورثوا عن الكلدان انشغالهم بالتنجيم واستطلاع الغيب إنهم يتصفون بالأنانية والروح التجارية النفعية.

ويتجلى هذا الهوس فيما كتبه أندره سرفيي إذ قال: إن الحضارة العربية هي من صنع شعوب أخرى كانت لها مدنيات قائمة قبل أن يستعبدها الإسلام.

هذه هي أصداء النظرة الاستعمارية التي سادت أوربا في القرن التاسع عشر ودفعتها إلى احتلال أقسام عديدة من آسيا وأفريقيا ومن ضمنها البلدان العربية.

وقد جاء الشاعر الإنكليزي العنصري رودوار كيبلنغ ليقول: الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقي التوأمان.

إنهم يعبرون عن عنصريتهم بإنكار دور العرب العلمي والحضاري. وفي هذا الموقف نجد أرنست رينان المتعصب دينياً فيزعم زوراً ودون حياء أن الدين الإسلامي يتصف بالتحجر والرجعية وفيه سذاجة الفكر السامي المفزعة المقلصة للمخ البشري.

لقد استشرى هذا التيار المناوئ للعرب والإسلام في بداية القرن العشرين ولاسيما بعد الحرب العالمية الأولى وقيام حركات التحرر في عدد من البلدان.

إن هذا الموقف الذي منبعه ومرده التعصب العرقي أو الديني كانت غايته تسويغ استعمار ظالم باغٍ احتل أراضي الآخرين وصادر حريتهم وحطم إرادتهم في العيش المستقل الكريم.

وحسبنا أن نرد على هذا الضلال بكلمات قليلة:

١- لا وجود لعرق متفوق ولا لعرق وضيع بل لكل عرق مزاياه. وبينت الأحداث فداحة الخطأ الذي وقعت فيه النازية، ورأى العالم ما ينجم عن النظرة العرقية الخاطئة من قتل وتشريد وتدمير..

٢- أما الإسلام فهو عقيدة منفتحة على ما سبقها، سمحاء لا تفرض نفسها «لا إكراه في الدين» والقرآن الكريم في الوقت ذاته بدأ بكلمة اقرأ، والقراءة سبيل الفهم والمعرفة وتحكيم العقل. إن التمسك بدين ما لا يقتضي بالضرورة الافتئات على الأديان الأخرى أو الحط من شأنها ويقول العلامة محمد السويسي: إن العلاقة القائمة بين العلم والإيمان هي علاقة تعاضد لا علاقة تضاد.

٣- إن ابن خلدون والبيروني والفارابي وسواهم من الأعلام الذين أدوا للإنسانية أجل الخدمات فهم عرب موطناً ولغة وثقافة أياً كان نسبهم، وليس من عاقل يفرزهم خارج الحضارة العربية التي كان ركنها الدين الإسلامي واللغة العربية والتعايش السلمي والوحدة من خلال التنوع. لقد دعا العرب الفيلسوف أرسطو المعلم الأول اعترافاً بفضله فأين ذلك مما ذهب إليه بعض المستشرقين الحاقدين!

٤- ونتساءل: إذا لم يكن فيما خلَّفه العرب من جديد فيما أضافوه، فلِمَ لم يقبل الغربيون على ترجمة المؤلفات اليونانية مباشرة واكتفوا بها؟

لماذا لم يتركوا مؤلفاً للرازي مثلاً إلا نقلوه إلى لغاتهم مرة أو أكثر؟ فقد ترجم الحاوي إلى اللاتينية جيرار الكريموني عام ١٤٨٦م ورسالته في الجدري والحصبة ترجمها فالا إلى اللاتينية عام ١٤٩٨م وبوله إلى الفرنسية ١٨٦٦م ثم لوكلير ولينوار إلى الفرنسية أيضاً في العام نفسه!

٥- ونتساءل أخيراً: لماذا دخلت المئات من الكلمات العربية بألفاظها مطوعة للنطق الغربي، اللغات الأوربية: الإسبانية والفرنسية والإنكليزية والألمانية والروسية؟ إنها كلمات علمية وحضارية لم يجد لها الأوربيون عند الاطلاع عليها مقابلات في لغاتهم. أليس هذا شاهداً على أن الحضارة العربية أثرت في الغرب علمياً وحمل هذا التأثير مفردات العلم والحضارة إلى لغات الغرب المختلفة؟

ألا يكفي أن تسمى الأرقام التي غيَّرت مسيرة العلم «الأرقام العربية» وأن الصفر نقل إلى لغاتهم، وأن اللوغاريتم تعني أن صاحبها هو الخوارزمي؟

ولعل روجه غارودي المفكر الفرنسي الشهير خير شاهد على أهمية هذا الحدث ونعني انتقال العلوم من العرب إلى الغرب. يقول غارودي: «إن الحضارة العربية الإسلامية قد أغنت الإنسانية خلال ألف من الأعوام وهيأتها للمستقبل.. لقد نقلت الحضارة العربية عبر صقلية وإسبانيا إلى أوروبا ثقافة كان العرب يحملون همها وتبعاتها مدة عشرة قرون. لقد ولد «المغرب المعاصر» من إسبانيا الفونسو العاشر ومن صقلية فريدريك الثاني.. لقد كانت المرضع لحضارة الغرب».

ونلاحظ إن هذا العداء والافتراء لم ينتهِ بعد، بل تواصل على أيدي مفكرين أميركيين ورثة الاستعمار القديم.

فقد أصدر المفكر العربي الفلسطيني البارز أدوار سعيد كتاباً من أهم كتبه هو «الاستشراق».

ويكشف ادوار سعيد في هذا الكتاب الصورة التي ابتدعها الغرب عن الشرق. ويبين أن الخطاب الاستشراقي ليس مجرد فرع علمي حيادي بل تخترقه علاقات القوة والسلطة. فالأوربيون وبعدهم الأميركيون الذين كتبوا عن الشرق فعلوا ذلك بطرائق كان لا مفرَّ من أن يؤطروها ويتحكم فيها اندفاع بلدانهم لإخضاع الشعوب الشرقية واستغلالها.

وبهذا القول أظهر هذا المفكر الكبير أن الاستشراق ليس عملاً علمياً موضوعياً وحيادياً، بل هو عمل قدِّم بغرض معين وهو تسويغ الاستعمار الذي مارسه الغرب على العرب وغيرهم من شعوب الشرق.

وإذا كان هذا المنطق قد رافق عصر الاستعمار والإمبريالية، فقد انتقل اليوم، في عصر العولمة، إلى تسويغ سياسة الهيمنة والتسلط والاحتواء التي مارستها حكومة الولايات المتحدة في الحقبة الأخيرة.

فقد تصدى الكاتب الأميركي هنغتون لهذه المهمة. ففي صيف عام ١٩٩٣م نشر في المجلة الفصلية المسماة «القضايا الأجنبية» مقالاً أثار فيه جدلاً واسعاً زعم فيه أن البلد الرئيسي والأخطر في السياسة الكونية الناشئة سوف يكون الصدام بين جماعات من حضارات مختلفة. ثم حوّل هذا المقال إلى كتاب مدخلاً عليه تفصيلات وتنقيحات وإضافات وهو كتاب «صدام الحضارات». يقول هنغتن في كتابه: إن خطوط الانقسام بين الحضارات أخذت تحل محل الحدود السياسية والإيديولوجية للحرب الباردة باعتبارها نقاط تفجر الأزمات والمذابح. ويمضي إلى القول: إن النزاع وفق خط الانقسام بين الحضارتين العربية والإسلامية مستمر منذ (١٣٠٠) سنة وإنه ليس مرجحاً أن ينحسر بل قد يصبح أكثر خطراً!

إن هذه الأفكار التي تنشر الأزمات والمذابح بين الغرب والإسلام ليست علماً ولا كشفاً ولا نبوءة، بل هي تسويغ ذرائعي شديد الخطر لأنه دعوة إلى النزاعات والحروب وتأييد للقوة والجشع والنزوع إلى إلغاء الآخر. فأين يقع الاعتراف بـ «حوار الحضارات» من هذا المنطق وأين منه الإقرار بفضل العرب في الحضارة الإنسانية وحملهم مشعل العلم والفكر والفن ثمانية قرون متتابعة!

الخاتمة:

لقد أعطينا العالم الكثير في مجالات العلم والفكر، ودار الفلك دورته فإذا بنا نقع في ركود أشبه بالجمود لأسباب خارجية وداخلية وتقدم الغرب بعد أن اقتبس منا ما اقتبس. ومنذ قرنين ونحن نحاول جاهدين لننهض ونسترد مكانتنا، والعقبات ما زالت أمامنا.

بيد أنه لا يأس، فالإنسان العربي يناضل بصبر وعناد للتخلص من رواسب الجهل والتخلف والتغريب والاستلاب بعد ما عانى ما عانى في عهود القهر والتسلط، ولا بد لنضاله أن يثمر ولسعيه أن ينتصر، فيلتقي بالمتقدمين ويكون له دور المشاركة كما كان له في الماضي دور في الأسبقية والريادة.

المراجع

١- كتاب «اللغة العربية في مواكبة الفكر العلمي» بقلم الدكتور محمد السويسي - دار الغرب الإسلامي بتونس - الطبعة الأولى عام ٢٠٠١.

٢- كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» للمستشرقة الألمانية زيغريد هونكه ترجمه عن الألمانية فاروق بيضون وكمال الدسوقي وراجعه مارون عيسى الخوري. من منشورات دار الآفاق الجديدة ببيروت الطبعة الخامسة ١٩٨١.

٣- كتاب «العلوم الإسلامية» للدكتور أحمد شوقي الفنجري - إصدار مؤسسة الكويت للتقدم العلمي الطبعة الأولى ١٩٨٥.

٤- كتاب «مآثر العرب العلمية أساس حضارة الغرب» تأليف فؤاد جميعان الطبعة الأولى في المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠١.

٥- كتاب «كتب أنصفت حضارتنا» تأليف الأستاذ فريد جحا، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٧٧.

٦- كتاب «دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية» تأليف أ. هاني المبارك ود. شوقي أبو خليل إصدار دار الفكر بدمشق عام ١٩٩٦.

٧- كتاب «الترجمة قديماً وحديثاً» تأليف شحادة الخوري إصدار دار المعارف في مدينة سوسة - تونس الطبعة الأولى ١٩٨٨.

٨- كتاب «تاريخ العلوم عند العرب (بحوث ودراسات)» تأليف مجموعة من الجامعيين - إصدار بيت الحكمة في قرطاج (تونس) عام ١٩٩٠.

٩- كتاب «فضل العرب على الإنسانية في الميادين العلمية» - محاضرة للدكتور عزة مريدن إصدار المجلس الأعلى للعلوم عام ١٩٦١.

١٠- دراسة «آراء بعض المستشرقين حول التراث العلمي العربي والرد عليها» إصدار مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٩٨٥.